الثقـــافة الشـعبية (*)

أحمـــد أمـين

الثقافة حق من حقوق كل فرد فى الأمة طفلا كان أو رجـــلا أو امرأة ، فلاحا فى حقله ، أو صانعا فى مصنعه ، أو تاجرا فى متجره ٠

ومتى كان هناك حق فلابد فى مقابله من واجب ، وهذا الواجب على الحكومة ممثلة فى وزاراتها المختلفة كوزارات المعارف والشـؤون الاجتماعية والصحة والمالية كل فيما يخصه ، بل هو واجب أيضا على الهيئات التعليمية كالجامعة وشبانها والنقابات المختلفة أمام الأفـــراد الذين ينتسبون اليها والشركات والعاملين فيهـــا وهكذا ٠ وعلى أفراد الشعب أن يطالبوا بثقافتهم،وعلى هذه الهيئات أن تقوم بواجبها نحوهم٠

وجمهور الشعب معذور فى عدم مطالبته بحقه فى الثقافة ، لأن الثقافة من الأمور التى لا يفهم قيمتها الا من ملكها ، فاكبر الوزر على من عليهم الواجب لأنهم يفهمون قيمة الثقافة للشعب ثم لا يقدمونها ٠ فالثقافة لشعب هى التى تكون الرأى العام الناضج ، وبدونها يكون رأيه العام رأى طفل ، والثقافة هى التى توسع أفقـه وترقى مداركه وتهذب سلوكه وتحسن تصرفه وتربى ذوقه وتفتح له أبوابا فى الحياة لا تفتح بدون الثقافة ٠

والى الآن أرى أننا فى مصر وقعنا فى خطأين كبيرين : الأول أننا وجهنا مجهودنا الى المدارس على اختـــلاف أنواعها من التعليم الأولى والالزامى ورياض الأطفـــــال الى الجامعة ، ولم نوجه أى اهتمام الى تثقيف الشعب خارج جدران المدارس ، وهو الأكثر عددا والأشد جهلا ، وترك وشأنه يرعى فيه الجهل بسوء التصرف ، وســـوء الصحة وســوء المعيشة وضيق الأفق ـ كانت وزارة المعارف العمومية فى القديم تســمى

(*) مؤتمر سياسة التعليم ، نوفمبر ١٩٤٥ ، صص ٣٣ ـ ٣٦ ٠

ديوان عموم المدارس ، فظل اختصاصها الى اليـــوم كاختصاص ديوان عموم المدارس ، وكل ما طرأ من تغير هو زيادة عدد المدارس وعـــدد التلاميذ وتعديل البرامج . أما الأساس وهو قصر نفســـها على المدارس فظل كما هو الى اليوم ، ولم تقم بأى واجب نحو الشعب خارج جدران المدارس . ولو كان هناك انصاف لكان نصـف ميزانية وزارة المعـــارف ونصف ادارتها ونصف كل شيء فيها لتثقيف الشعب فى الحقول والمصانع والمتاجر والشوارع .

الغلطة الثانية وهى كالنتيجة للأولى أننـــا حصرنا ذهننا على أن نفهم من الثقافة القراءة والكتابة ومضاعفاتها من علوم وفنـــون ؛ ذلك لأننا قصرنا أنفسنا على تعليم المدارس وهى تبدأ بالقراءة والكتابة وتترقى الى البحث العلمى والأدبى فى الجامعة ، ففهمنا أن الثقافة هى هـذا وحده ، وان هذا هو مسلكها ؛ وهذا ظاهر البطلان فقد يكون هنـــاك قارىء كاتب وهو ليس بمثقف ، وقد يكون هنـــاك مثقف وليس قارئا ولا كاتبا ، وقد يكون التلميذ فى المـدارس الثانوية وحتى فى الجامعة وأخوه التاجر الأمى يعرف من الدنيا وشؤونها والنـــاس وأحوالهم ، والحياة ونواحيها أكثر مما يعرف أخـــوه الثانوى والجامعى ، فيكون مثقفا أكثر منه ، بل قد يكون الأعمى فيلسوفا كبيرا وعالما خطيرا وهو لا يعرف القراءة والكتابة ، فيكون مثقفا أكبر من المثقفين .

فقصرنا الثقافة على القـراءة والكتابة ومضاعفاتها فهم خطأ أوقعنا فيه الفنـــا .

والثقافة التى نريد أن نوصلها الى الشعب ليس من الضـرورى أن تقتصر على القراءة والكتابة وتعتمد عليها فاذا عرضنا على الفـلاح عن طريق السينما الأمراض المتفشية فيه وطرق الوقاية منها فهـذه ثقافة ، واذا ألقينا عليه دروسا عن طريق المحاضرات بلغته العامية التى يفهمها عن حالته المالية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فهذه ثقافة ، واذا غنيت له أناشيد جميلة أو قطعا غنائية جميـــلة ترقى ذوقه فهذه ثقافة ذوقية ، واذا أبنت له طرق زراعته القديمة وطرق الزراعة الحديثة وبم تفضل الثانية الأولى فهذه ثقافة زراعية .

وأنا أستطيع وكلكم كذلك أن تكونوا مثقفين راقين بهذه الوسائل حتى من غير قراءة ولا كتابة .

والتعبير بالأمية خطأ جارينا فيه الأوربيين ، ولو أنصفوا وأنصفنا لكان مدار التعبير الحقيقى على الثقافة وعدمها .

فالثقافة الشعبية التى نريدها أوسع مدى وأعم فائدة تشمل القارىء الكاتب وغير القارىء الكاتب ، من يريد أن يبتدىء فى ثقافته والمتوسط الذى يريد التوسع فى ثقافته وهكذا ـ وهذا هو مدار الفرق بين مكافحة الأمية والثقافة الشعبية .

وبعد : فما هى الوسائل لتثقيف الشعب ؟

لذلك وسائل متعددة تتطلب مجهودا جبارا وتجنيدا كالتجنيد لمقاومة الجراد ومكافحة الملاريا فليس الجهل بأقل ضررا منهما ، كما تتطلب تعاونا بين الوزارات المختلفة وزارة الصحة تمد برجالها لنشر الثقافة الصحية ، ووزارة الزراعة كذلك ، والمعارف برجالها وأدواتها ، والمالية بمالها ، والمتحمسون للمشروع بقلوبهم وايمانهم ، والا مات المشروع ، فليس ينجح مشروع من غير ايمان . ولأضرب بعض الأمثلة على الوسائل :

(١) اللوريات الثقافية ـ وأعنى بها سيارات كبيرة مزودة بالخيام وبآلات السينما وبالمحاضرين من بعض الأطباء ورجال الزراعة ورجال الدين وبالفونوغراف والاسطوانات وبعض رجال التعليم ، وهذه السيارات متنقلة تغزو الأرياف وتنزل فى القرية فان وجدت مكانا صالحا نزلت فيه والا نصبت خيامها وأعلنت أهل القرية ببرنامجها المشوق ، وعرضت عليهم بضاعتها ، هذه سينما تبين البلهارسيا والأنكلوستوما ، وهذه سينما تبين بعض الأمراض الزراعية وكيف يعالجها الدواء ، وهذا واعظ دينى ، وهذه أناشيد غنائية ، وهذه محاضرات اجتماعية بلغة عامية وهكذا ، ولا بأس من مغريات لذلك كتقديم الشاى وبعض الأكل. وتقيم السيارة أسبوعا فى القرية تنتقل بعده الى قرية أخرى وهكذا ، ثم تعمم هذه السيارات بقدر الامكان .

(٢) ووسيلة أخرى ، اذاعة الراديو فى القرى والبلاد ما أمكن ، وترتيب محاضرات ثقافية تناسب عقول الشعب وتلقى بلغة يفهمها ٠

(٣) استصـــدار تشريع ـ كما فعلت بعض الأمم يحتم على كل صاحب دار سينما أن يعرض قبل كل رواية شريطا سينمائيا ثقافيا لمـدة عشر دقائق ٠ تعرض فيه ناحية من نواحى الثقافة الجغرافية أو التاريخية أو الاجتماعية ٠

(٤) والمكتبات الشعبية وهى مكتبة فى كل حى ؛ فيها الكتب التى تناسب الجمهور وفيها المجلات والصحف ، وفيها مائدة للمطالعة ٠ وفيها قيم على الكتب يتولى ارشاد الزائرين فى موضوعات الكتب وقيمتها ٠

(٥) ثم المعهد الثقافى وهو معهد ينشأ بجانب كل من مجموعة من العمال متناسبة يثقفون ثقافة مناسبة ، كمعهد ثقافى فى المحلة الكبرى وفى الحوامدية وبجانب جمرك الاسكندرية ٠

(٦) ويتوج ذلك كله الجامعة الشعبية لتثقيف كل مـن أراد أن يتثقف فى كل فرع من فروع العلم والفن ، والفرق بينها وبين المعهد أن المعهد متقارب المناهج بطبيعة تقارب المتعلمين أما فى الجامعة فتتعدد المناهج وتتفاوت بطبيعة تفاوت المستمعين ٠

هذه بعض الوسائل لنشر الثقافة الشعبية ٠ ولسنا بدعا فى هـذا فالأمم الحية بدأت برامجها فى اخراج هـــذه المشروعات وأمثالها الى الوجود منذ أكثر من قرن ، ولونتها كل أمة اللون المناسب لها من نهضة صناعية أو مهنية أو سياسية أو ذهنية ، وعار علينا أن نتأخر فى الخطوة الأولى الى الآن ٠

ان الغرض الذى نرمى اليه من نشـــر الثقـــافة الشـعبية أمران : (١) اعداد جمهور الشعب لادراك المســـائل اليومية التى يواجهونها ادراكا سليما وتقويمها تقويما صحيحا بقدر الامكان (٢) تنمية الوعى القومى واظهاره بالشكل العملى من معرفة حقوقه والمطالبة بها ومعرفته حقوق الآخرين واحترامها ، والأمانة فى المعاملة ، والدأب فى اتقـــان

عمله وتأديته أحسن ما يؤدى خدمة لنفسه وولاء لوطنه ونحو ذلك بما يتفق أيضا والوعى الانسانى .

واذا كان هذان الأمران مما يعنى بهما أو مما يجب أن يعنى بهما فى التعليم المدرسى أيضا فالفرق أن الثقافة الشعبية تريد أن تصل الى هذين الفرضين من أقرب الطرق وأيسر المناهج من غير أن تعوقها تفاصيل العلوم وقيود الامتحانات والسير التدريجى الدقيق فى نظام الفصول والسنوات ونحو ذلك . واذا كانت الدراسة المدرسية تعتمد أكثر ما تعتمد على البصر من قراءة وكتابة ، فالدراسة الشعبية تعتمد أكثر ما تعتمد فى ثقافتها على الأذن - والأذن تدرك قبل العين أحيانا -